الاسرة السعيدة

قصة بقلم أسما حليم

كوكو وفيدو وماري واديل ، طرقت بابهم في امسية يوم احد . وكنت قد جبت شوارع بيروت عبثاً من اجل حجرة استأجرها ، فلما رأيت حجرتهم فسيحة ولها شرفات دفعت الايجار فوراً .

وبعد ان احضرت حقيبتي ورصصت ملابسي في الصوان ، لاحظت الاتربة المتراكمة على الحيطان وخيوط العنكبوت المدلاة من السقف ، والصراصير التي تمرح تحت السرير والصوان .

وفي اول صباح اشرق علي في مسكني الجديد ايقظني صياح الديك من الرابعة صباحاً ، ولم يكف الكلب عن العواء طيلة النهار .

ولكني كنت قد دفعت الايجار .

والشقة مكونة من ثلاث حجرات والمطبخ والحمام : حجرتي ، وحجرة مغلقة دائماً هي حجرة نوم فيدو وماري واديل ، وحجرة الاستقبال والمائدة والراديو معاً وهي دائماً عابقة برائحة التبغ ، ثم الحمام الذي لا ينظف ابداً ، والمطبخ الذي يطبخ فيه اكل فيدو مرة كل يومين واكلهما مرة كل اربعة ايام .

وصاحبتا الشقة قريبتان ، فهما ابنتا خالة ، علاوة على صلة النسب بينهما . فماري زوجة اخ اديل ، علاوة على الزمالة الطويلة بينهما ، لذلك لم تكن احداهما تطيق فراق الاخرى .

وكان من الصعب تحديد ايهما اكبر سناً ، فماري تتصرف كالطفلة الصغيرة ويخيل لها ان تبدو كأنها الغريرة قليلة الخبرة التي لا تعرف امور الحياة . ولعلها كانت في الواقع اصغر من اديل ، ولكنها كانت مجعدة الوجه بشكل يوحي بانها تخطت الستين . في حين تبدو اديل في الخمسين من عمرها ، الا اذا نمت جذور شعرها وبدت بيضاء ناصعة كملاءة السرير .

في يوم مضى في التاريخ القديم كانت ماري طفلة سعيدة لها اب وام واخ وتسع اخوات ، تلعب مع اخواتها بالكرة امام باب بيتها . ثم مات الاب في حرب مع الترك ومات الاخ في حرب ضد الترك ، فحزنت عليهما الام كثيراً واهملت شئون بيتها وبناتها فمات الخمسة الصغار تباعاً ثم لحقت بهن الام وفاء منها لاعزائها ، وبقيت البنات الاربع بلا عائل ولا نصير ، فاجتمع اقاربهن ، وتطبيقاً للمثل القائل « القفة التي لها اذنان يحملها اثنان » تقاسموا البنات فيما بينهم ، فكانت ماري من نصيب اسرة اديل .

وربيت ماري في البيت تخاف من اديل وترجف من والديها واخيها الاكبر ، ولكن كان هناك جورج الاخ الاصغر الذي يقاربها سناً ..

ولم تكن ماري جميلة فشقتاها رقيقتان كأنهما غير موجودتين ، وعيناها حولاوان تنظر باحداهما الى الشرق وبالثانية الى الغرب كأنها تريد ان تلم بالكون كله في نظرة واحدة ، علاوة على شعرها الخفيف الذي لا يخفي جلد رأسها .

ولكنها كانت بيضاء متوردة الوجنتين ممتلئة ذات افخاذ وارداف.

وفي يوم انتهزت فرصة غياب اديل عن البيت فجمعت فستانها من الامام بحيث تكشف عن سيقانها وتمشت امام جورج . ثم جاءت بدلو مملوء ماء وقطعة من الخيش وبدأت تمسح البلاط في الحجرة التي يجلس فيها .

وتنبه جورج الى المفاتن التي تتحرك امامه مرة الى اليمين ومرة الى اليسار بعكس حركة قطعة الخيش ، وعجب من نفسه كيف لم ينتبه من قبل الى انه في شقة واحدة وتحت سقف واحد مع هذه المفاتن التي يشتهيها في شقق الجيران .

. ولم تمانع ماري ، ولكنها بعد قليل بكت بين ذراعيه وبثته خوفها من ان تكون العلاقة الخفية قد اتت بثمرة لا يمكن اخفاؤها . ولكنه هزيء من مخاوف اليتيمة التي تتربى في بيت ابيه ، فهددته بان تقتله وتقتل نفسها ، وخاف جورج من التهديد فاذعن ، ونسيت ماري انها هددته واعتقدت انه قتيل هواها . اما هو فلم ينس ابداً .

واضطرت الاسرة التي كانت تتمنى له زوجة ثرية ان توافق على الزواج الذي اصبح ملحاً .

وانجبت ماري ثلاثة اطفال ماتوا في باكورة حياتهم وتركوا في قلبها جوعاً الى الاشياء الصغيرة السن والحجم . وبعد سبع سنوات من الزواج اضطر جورج الى السفر الى مدغشقر لامر يتعلق بوالده ، ولم يتوقع احد ان تطول غيبته اكثر من عام . ولكن الاعوام مرت تباعاً وهو غائب . وتزوج اخوه الاكبر وأنجب اربعة اطفال وهو غائب ، ووقع ابوه تحت عجل الترام ومات وهو غائب . واختلت مالية الاسرة فانتقلت من غرب بيروت الى شرقها وهو غائب ، واكملت غيبته اعوامها العشرة في كل عام اثنا عشر شهراً وفي كل شهر ثلاثون يوماً . وعندما تتحدث ماري عن غيبة زوجها التي طالت تقول غائب من ست سنوات والسابعة وهذه هي السنة الثامنة .

فتصححها اديل .

— عشرة يا ماري ، اكمل العشرة .

ولكن ماري ترفض ان تصدق هذه الحقيقة فلا تعبأ باعتراض اديل وتكرر ... ست سنوات والسابعة ...

وكان جورج في اول غيبته يكتب لها الخطابات الوالهة وترد عليه هي بخطابات اشد ولهاً كأن رجال المواصلات بين لبنان ومدغشقر لا عمل لهم الا توصيل خطابات « صغيرتي ماري » الى حبيب القلب « جورجي » . ثم خفت حرارة الخطابات وطالت الفترات بينها حتى انقطعت تماماً .

وبكت ماري ولم تستطع ان تخفي انفعالها ومخاوفها فصبت جام غضبها من زوجها على اخته وكالت لها الاتهامات .. اخوك الخائن .. لي رفيقة .. يحب غيري .. وتحملتها اديل في صبر كريم ، ومن قرارة نفسها تلمست لها الاعذار ، وبعد ان جفت الدموع وهدأت الثورة اقسمت ماري انها لن تكتب له ابداً ، وعزت نفسها بانه — على كل حال — ماروني لن يستطيع ان يطلقها ليتزوج من ضرتها المجهولة .

وظهر مفعول الغيرة عليها فذاب شحمها وتلاشت افخاذها واردافها وتجمد وجهها وتقاطعت على صفحة الاخاديد وخط شعر فوديها حتى صار من المستحيل إخفاء جلد الرأس تحته ، وازداد الحول وضوحاً في عينيها بعد ان صارت تكحلهما بالاسود . واشاع اصدقاؤها ومعارفها — من وحي ما صارت اليه — ان جورج اراد بعد ان طالت غيبته مفاجأة اهله بعودته . فلما وصل الى بيروت توجه الى مسكن زوجته ورآها خارجة من البيت فلم يعرفها في اول الامر ، ولما عرفها اخفى نفسه عنها وعاد رأساً الى الميناء ، وبأول باخرة الى مدغشقر ثانية .

اما اديل فهي اكبر سناً واقصر قامة واكثر امتلاء . عيناها خضراوان

تحفي خضرتهما نظارة سميكة اطارها مكسور وملحوم بقطعة من اللبان الامريكي . وهي حتى اليوم آنسة لم تعرف لمسة الرجل . سلخت من الدهر نصف قرن او يزيد لم تحب ولم تحب . ماتت امها بعد فترة من حضور ماري عندهم ، فتولت هي شؤون البيت تطبخ وتكنس وتغسل وتؤدب ماري .

تقدم لها خطاب ولكن والدها اشترط ان تكون اقامتها بعد زواجها معه حتى تستمر في الاشراف على البيت ، وكان معروفاً بطبعه السيء ففر الخطاب . وما تزال اديل تذكر منهم واحداً اشيب الرأس كثير المال قال لها سوف تندمين .. ولكنها كانت ككل فتاة والدها سيء الطباع لا تملك تقرير مصيرها .

فلما انتبهت الى ان اوانها قد فات ورأت البياض يغالب السواد في شعرها بكت سوء حظها ثم لجأت الى الاصباغ وفنجان القهوة وورق اللعب لعلها تعينها على اللحاق بالركب الذي رحل . وذات مرة جمعت اطراف شجاعتها وحاولت ان تتفاهم مع والدها وتشرح له ان اخاها الكبير تزوج وانشغل بأولاده واخاها الصغير غائب منذ سنوات ولا يعلم احد متى يعود ومستقبلها مخيف ورجته ان يؤمنه بخمسة الاف ليرة يضمها باسمها في البنك ، فنهرها ابوها وهزيء بمخاوفها .

وبعد ايام من هذا الحديث مات الاب تحت عجلات الترام وانكشف الستر عن حقيقة ثروته فاذا هي بعد تسديد ديونه بضع مئات من الليرات اخذ الاخ الاكبر معظمها .

واضطرت اديل الى الانتقال من رأس بيروت الى النهر حيث المساكن رخيصة الاجر كثيرة البعوض . وانتقلت معها ماري ، ومنذ ذلك الوقت تلازمتا ، اديل تقوم بواجبات البيت . واحترفت ماري الخياطة تنزل كل يوم الى معترك الحياة لعلها تصيد قرشاً . ولكن كان لا بد لها من تأجير حجرة من مسكنها حتى تستطيعا دفع ايجاره وهكذا دخلت الى محيطها .

***

انصرم الصباح واديل جالسة بجوار الراديو الذي تديره خافتاً حتى لا يستهلك كثيراً من الكهرباء ، استمعت الى الغناء ثم الاخبار ثم الاحاديث . وكف الراديو وهي ما تزال جالسة مكانها . وسرحت بخواطرها ، لم تكن تفكر في شيء معين ، بل تقتل وقتها . ثم قامت فاحضرت ورق اللعب وصارت ترميه ثم تجمعه وترميه ثانية . ثم نفخت من فيها ... اهكذا تمضي ايامها طويلة مملة عديمة الفائدة .. ؟ وقامت الى الشرفة فاتكأت على سورها تطل على الطريق ، واحتك بها الكلب وعوى . حاضر يا فيدو .. حالاً يا بوحنو ...

وذهبت الى المطبخ فاشعلت الموقد وسلقت قليلاً من المكرونة ثم قلت حبة من الطماطم في الزيت ، ثم اخذت لفة فيها بعض العظام ففسلتها واضافت اليها ماء وملحاً واقامتها على الموقد . وجلست على المقعد تنتظر . فلما غلت الشوربا وتصاعد بخارها اطفأت الموقد . واضافت قطع الخبز الى الشوربا فاعدت منها ثريداً عظيماً . وجاءت برغيف فوضعته على منضدة المطبخ بجوار صحن الطماطم . ثم وضعت المكرونة امام الديك ، وثريد العظام للكلب واكلت هي الطماطم المقلي في الزيت مع رغيف العيش ثم مسحت صحنها بلقمة من الخبز بنفس العناية التي تمسح فيها البلاط وكانت الساعة قد قاربت الخامسة ففسلت الاواني التي اكلت فيها هي والكلب والديك ثم استأنفت الجلوس الى الراديو . وكان فريد الاطرش يغني وهي تحب اغانيه وتغنيها احياناً ولكن بعد ان تحور في انغامها وكلامها فتصبح وكأنها من اغاني مطلع القرن .

لولا الراديو لماتت اديل مللاً ، ولكنها في تلك الليلة عوضت عن صبرها خيرا ، فدق جرس الباب . واديل تكتفي في البيت بلبس القميص اقتصاداً ، وقبل ان تفتح شراعة الباب لترى الطارق تضع « بلوزتها » حتى تخفي ثديها المهولين المطلين من فتحة القميص . فلما رأت القادم ابن عمها تهللت ورحبت وفتحت له الباب واسرعت الى حجرتها تكمل الطقم بلبس الجونلة .

وحجرتهما هذه لا مثيل لها الا في كتب دستوفسكي . فهي مظلمة دائماً ، لها بابان احدهما لا يفتح ابداً ، والثاني يفتح موارية ضيقة لتنفذ منها ماري ، او اكثر قليلاً لتنفذ منها اديل ثم يقفل سريعاً خلفهما . وفي الحجرة سريران ، تنام ماري واديل في واحد والكلب في الثاني ، وفيها صوان فيه ملابسهما القليلة ، ومنضدة وكراسي قماشها مهلهل وعلب من الكرتون ومن الصفيح واشياء اخرى كثيرة لا حصر لها .

وقضت اديل سهرة ممتعة مع ابن عمها حدثته فيها عن كل شيء حتى لم يبق شيء فأنشأت تعيد ما قصته قبلاً . واعدت له نارجيلة ولنفسها اخرى ففي مطبخها سبع نارجيلات تحتفظ بها منذ ايام رأس بيروت . وجلس الاثنان يكركران . ثم احضرت ورق اللعب ولكنها لم تبصر بالمستقبل بل لاعبت ضيفها الباصرة والكونكان .

ولما انصرف الضيف وعادت ماري من الخارج كانت اديل سعيدة تغني النغمة التي لا تتغير مهما تغير الكلام :

« ليه تكايدني والله لاكيدك
حرمتني النوم ايه راح يفيدك »

وفي صباح يوم بعد خروج ماري دق بابها طارق ، واسرعت اديل الى بلوزتها ثم الى الشراعة فوجدت رجلاً زائغ النظرات كثير الشبه باللصوص أخبرها انه يريد تعليم ابنته الخياطة ، فادخلته واجلسته على اقرب مقعد للباب . واخذت تقرظ مهارة ماري وتتحدث عن شهاداتها التي عليها ختم الحكومة وعن الخياطات البارعات اللاتي تخرجن على يديها من الجامعة الاميركية . وسألها الرجل عن الاجر الذي تطلبه ولكنها كانت تلاحظ نظرات عينيه فبدلاً من ان تجيبه سألته :

– لماذا تتطلع حولك ؟

فقام الرجل وانصرف بعد ان وعد بالعودة . ولعله لم يجد في الحجرة ما يستحق أن يتطلع اليه ، او لعله كان يعلم ان الجامعة الاميركية لا تخرج خياطات ، فانه لم يعد ابداً .

فلما قصت على ماري قصته غضبت غضباً شديداً وسألتها :

– لماذا حادثته ؟
– كيف ؟ هل اجلس امامه خرساء ؟
– يظهر انك طلبت منه اجراً عالياً !
– يعلم الله لم احادثه عن نقود ابداً .

فتصرخ ماري :

– لماذا تتدخلين في شؤوني ؟
– عيب يا ماري .
– هل انت الخياطة ام انا ؟

واخيراً لم تحتمل اديل فهربت منها الى الشرفة وهي تصرخ .. دخيل الله يا ماري . وطاردتها ماري الى الشرفة . ثم الى المطبخ واديل تفر

امامها وهي تصرخ والكلب بين ارجلهما ينبح .

كانت ماري بارعة في انتهاز الفرص للانتقام من اديل لطفولتها الستي ملأتها بالرعب ، وانتهى الامر بأن اصبحت اديل تخاف من ماري التي قوى من ساعدها انها اصبحت عائل الاسرة .

ولكن ماري كانت بدورها تخاف من فيدو . تخلع الحذاء من قدمها وتصرخ فيه :

– يا كلب .. يا ابن الكلب .

ولكن فيدو بدلاً من ان تذله هذه الحقيقة يكشر عن انيابه ويزوم فتسرع بلبس حذائها وهي تستغيث بأديل في صوت متخاذل :

– سيعضني !

– أتركيه وشأنه !

فيشمخ فيدو برأسه ويبرطع في البيت ، يرفع رجله اليمنى ويتبول حيث يشاء ويتمدد على الاريكة بمفرده . ولكنه كان يخاف من رابعهم كوكو الديك ، الذي ينقر كل من يقترب منه . وهكذا قبعت اديل في ذيل السلسلة التي يتصدرها الديك .

***

وحل اليوم الذي تعطلت فيه ماري عن العمل فلم تخرج في الصباح . جلستا متقابلتين تنظران الى حيطان الحجرة ، ثم لم تحتمل اديل الموقف وانهارت اعصابها فصرخت :

– يا رب ... يا الله ..

واسرعت ماري الى حجرتهما وعادت بسيجارة ونصحت اديل .

– اشعلي النارجيلة

ومضتا تدخنان في انتظار الفرج فاستنفد التنباك والسجائر ما بقي معهما من قروش .

وكان من عادتهما ان تقضيا يوم الاحد عند اخيها الاكبر . فلما عادتا من عنده ذلك الاحد اسرعت اديل الى حجرتها فبحثت هنا وهناك حتى عثرت على حبات الاسبرين فابتلعت حبتين وتمددت على الاريكة مغمضة العينين .

كان كل ما تبقى معهما فرنكين دفعاها اجر الترام الذي اقلهما الى بيت اخيهما . وبعد ان اكلا الملوخية التي وعدتهما بها زوجة اخيهما منذ الاحد السابق ، جلسوا جميعاً يدخنون النارجيلة .

قالت اديل لاخيها وهي تقلب امامه كيسها الخاوي :

– اخي ، ماري بدون عمل منذ اسبوع وكيسي خاوي ليس فيه ليرة ولا نصف .

– وماذا تريدين مني يا اختي وانا صاحب اولاد ؟

فبكت اديل بحرقة :

– وانا يا اخي ليس لي عائل ولا مورد ولم اتزوج من اجلك انت واخيك .

– انا موظف حكومة يا اختي واولادي اربعة في المدارس والدنيا غلاء .

وبكت اديل ثانية حتى اصابها صداع ، ليتها تموت وترتاح ..

وقطب الاخ وجهه وسهم يفكر وهو يكركر بالنارجيلة ، هل يعطيها .. ؟ .. وكم يعطيها .. ؟

– خذي يا اختي ورقة بعشر ليرات ، والله لولا الغلاء ..

وفي اليوم التالي دبت الحياة في المطبخ ، الموقد مشعل واديل تصرخ

– ماري الحقيني .

وكانت ماري في حجرتها تقلب في محتوياتها العجيبة :

– ماذا تريدين مني ؟

– الحقي الرز .

وطارت ماري الى المطبخ وهي تصرخ:

– ما به الرز ؟

وانهمكت الاثنتان في طبخه ، واحدة تقلب بالملعقة والثانية تخبط على الصنوبر الذي يشح بمائه ، ثم صبتا الماء على الارز فارتفع صوته وتعالى بخاره وملأت رائحته المطبخ وارتاح بالهما ..

ثم نفدت الليرات العشر وعاد المطبخ الى وحشته واديل الى ورق اللعب تبحث فيه عن مخرج وتخاطب نفسها وهي ترص الورق وتعيد رصه بعد اربع نقاط .. اربعة ايام او اربعة اسابيع او من يدري ... اربعة اشهر .

– ابصقي من فمك على هذا الفال ...

ولكن ازمتها حلت قبل الايام الاربعة فجأة وبشكل موقت .. حياكة خمسمائة علم ملون لتزيين شوارع بيروت بمناسبة زيارة ضيف هام .

ورابطت اديل امام ماكينة الخياطة وذراعها لا يكف عن الدوران طيلة النهار ومعظم الليل، وكأنما تريد ان تثبت انها تصلح للعمل وقادرة عليه ، لا تترك مكانها الا عندما تشتد حاجتها الى دورة المياه .

وماري تهرول بين البيت وصاحب العمل تسلمه ما جهز منه وتستلم منه الخيوط والقماش المقصوص . وفي استعجالها سقطت اثناء نزولها من على السلم وتدحرجت الى اسفله وقامت تنفض الغبار عن ثيابها وتضغط على ركبتها التي اصيبت وهي تعض على شفتها .

ولشدة تعبهما التهب حلق ماري فربطته بمنديل اسود وانفك معصم اديل من ثقل يد الماكينة فشدته بقطعة من الصوف واستمرتا تعملان. وحتى لا تستهلكا كثيراً من الكهرباء اشعلتا شمعة تسهران الى الثالثة صباحاً على ضوئها . وفي اليوم الاخير كانتا تشتغلان بخل وفي صمت ... اما ان تهزما او تنتصرا وتسلما الاعلام في موعدها .

كل هذه الضجة والاندفاعات والانفعالات وفيدو راقد على اكوام القماش الملون يبصبص بذنبه...

وفي يوم الاحتفال لبست ماري فستانها الاسود الذي يزيد من نحافتها، ولبست اديل فستاناً ابيض به ورود من حجم رغيف العيش مما يزيد من سمنتها وربطفيدو شريطاً احمر في عنقه وسار ثلاثتهم كأنهم ذاهبون الى عرس .

وقالت اديل لماري والكلب يسير بينهما :

– كل رئيس بلد له علم خاص، فعندما يأتون لزيارتنا نزين لهم الطرق باعلامهم .

ونظرت ماري امامها وتنفست عميقاً ثم قالت في امل :

– سمعت ان ثلاثة رؤساء سيزوروننا في الشهر القادم ...

ولما وقفتا على الرصيف بين الجماهير المتجمعة لتحية الضيف لم تكونا تتطلعان الى الجهة التي ينتظر مجيئه منها ، بل الى اعلا ... الى الاعلام التي تخفق مع النسيم .

اسما حليم